# الفصل الثاني

## هديه في الشجاعة ﷺ

### ١- اجتمـــاع الصـــفا

مـــا إن سمع القرشيون صوت النذير يناديهم حتى هبوا مسرعين نحو الصفا بالقـــرب مـــن الحرم ، وقد ارتسمت على وجوههم علامات التساؤل، واللهفة علـــى معرفة جلية الخبر ، فصاحب الصوت كان معروفا لديهم وهو الصادق المصدوق الأمين عندهم ، فمم ينذرهم يا ترى ؟ لابد وأن هناك حدث جلل في طريقه إليهم ، وقد أخذوا في الاحتشاد حول الصفا وقد ذهبت بهم الظنون كل مذهـــب ، وطفق كل منهم يقلب ما في نفسه وما في نفس غيره من هواجس ويـــتحدث بمـــا يساوره من مخاوف ، وقد اتجهت الأفكار إلى أن خيلا تستعد للغارة عليهم .

ولمـــا اكتمل الحشد بادرهم رسول الله ﷺ بقوله " أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل أكنتم مصدقي ؟".

قالوا : نعم . ما جربنا عليك كذبا قط .

فقال ﷺ : " فإني نذير لكم من بين يدي عذاب شديد " .

ونادى رسول الله ﷺ بطون قريش بطنا، بطنا ، فقال : " إني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا في الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله " .

وأخذت الحمية ، حمية الجاهلية الأولى أبا لهب ، وثارت فيه الغيرة على آلهته فقال " تبا لك سائر هذا اليوم ألهذا جمعتنا " .

" تبت يدا أبي لهب وتب ، وما الذي يستحق الاجتماع في نظره ؟ أهو حماية الأصـــنام وهـــي سر كل بلاء مستطير ! وإذا كان الاجتماع واجبا لدفع غارة مفاجئة حرصا على المال والبنين ومتاع الحياة ، وأي حياة ؟ حياة لا هدف لها ولا غاية ولا نظام ! وما دام الاجتماع هنا واجبا مفروضا ، فهو أوجب إذا ما تعلـــق بإنقاذ البشر من الشقاء الأبدي وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان بالله تعالى . وقد بين لهم صلوات الله وسلامه عليه أن اجتماعهم هذا لدفع عذاب أشد هولا من عذاب القتال ومصادمة العدو في الميدان ، فإذا كان دفع المغير عليهم واجبا ، فإن دفع عذاب الشرك والكفر فرض لا مناص منه ولا مهرب ، وقد يظن البعض منهم أن قرابته ستنفعه ولو بقي على شركه كما هو المعتاد عند العرب في نظرتهم إلى القرابة ، فنفى رسول الله ﷺ عنهم هذا الخاطر وأخبرهم أن الذي يستفيد منه ﷺ كل خير هو من آمن به وصدقه .

دعا رسول الله ﷺ أهل مكة بما ألفوا الاجتماع عليه إذا دهمهم خطب حتى لا يتخلف منهم متخلف ، ثم بدأهم بقضية مسلمة في صورة سؤال يدور حول ما يجـــول فـــي نفوسهم ، فيكون ردهم معبراً عن الحقيقة بلا لف أو دوران أو جـــدال ، و لـــو كانـــت المســـألة تدور حول الحق الذي ينكره الخصم ، إذاً لاســـتفاض الحديـــث وانفـــض الجمع دون سماع باقيه ، ولفاءت الثمرة من الاجـــتماع ؛ فســـرعة مباغتة الحشد بالحجة تكون ضرورية لنجاح الغرض المقصود منه ، فسألهم صلوات الله وسلامه عليه سؤالا يؤدي إلى أخذ إقرار جماعي منهم عن طواعية واختيار بصدقه ﷺ في جميع ما سيخبرهم به .

وهم بإجابتهم قد لزمتهم الحجة دون أن يشعروا بما سيقال لهم ، وهم بتنزيههم المخـــبر عـــن الكذب ، قد برأوه من جميع الصفات الممقوتة التي تلازم هذه الخصلة وهي مما لا يخفى على أحد : فالكذاب يكون جبانا ، ويكون حقيراً ،

ويكون ذليلا ، ويكون منافقا ، ويكون مرائيا ، ويكون فاتنا مفتونا الخ ... وهم إذا أقـــروا بصـــدقه صـــلوات الله وسلامه عليه في جميع ما يخبر لزمهم من التسليم بذلك الإيمان بالرسالة في الحال .

وإذا أخذ منهم رسول الله ﷺ إقراراً جماعياً بتصديقه ، دعاهم إلى الإيمان بالله تعالى فكان الواجب عليهم بناء على إقرارهم أن يؤمنوا جميعا بلا تردد .

ولكـــن للنفس من دون الحق حجبا تقفل القلوب عن الإصغاء للحق ، وتطمس البصائر عن رؤيته ، وكم من الناس من يعلم الحق ولا يتبعه ! وهم في ذلك طرائق : فمنهم من ينصرف عن الحق كبرا وحسدا ويصعر خده استهزاء أو يخشـــى اتباعه جبنا ، أو يحول بينه وبين الحق تمسكه بالعادات والتقاليد مهما كانـــت باطلـــة ، والعقيدة مهما بلغ انحلالها وفسادها ، فهو يقدس ما تلقنه في بيئـــته ولا يطـــيق الجدل فيه ، ويصير في نظره فيصلا بين الحق والباطل ، وقاضـــيا يحـــتكم إليه عند أي خلاف ، ومنهم المصاب بكسل عقلي هو أشد خطرا من النقص العقلي الطبيعي ، فلا يقبل التفكير في الجديد ، ويرفض أي تغيـــير فـــيما تعلمه ؛ ومنهم ضعيف الثقة في النفس المتردد في الرأي ، فهو يتهيـــب دون إعطـــاء أي حكـــم ، ومنهم من يعرض عن الحق لأنه في ظنه يـــتعارض مـــع مصـــالحه الذاتية ، فيتعلل بعدم قبول الحق بعلل لا تمت إلى ما يدور في نفسه .

## عقيدة التوحيد القرآنية مصدر كل كمال :

دعـــا رسول الله ﷺ الحشد إلى عقيدة ا لتوحيد وهذا من جوامع خطابه ﷺ : فكـــل خـــير إنمـــا هو مجمل ومفصل في شهادة التوحيد ، فالكمالات الثابتة الحقيقية المفضية إلى سعادة الإنسان في الدنيا والفوز المبين في الآخرة لا تتم

إلا بالشهادة الجامعة لفحوى الرسالات ( لا إله إلا الله محمد رسول الله ) وإن البشر لا يزالون بخير ما اتجهوا إلى تعاليم هذه الشهادة الجامعة .

إن مصـــدر جمـــيع الكمالات التي لا تتناهى هو الله سبحانه وتعالى ، فإما أن تتصل النفس بالكمال الإلهي المطلق عن طريق الرسالات السماوية ، وإما أن تنقطع عنه أو تنحرف بقدر بعدها عن حقيقة الرسالات الإلهية .

**ومن مستلزمات عقيدة التوحيد القرآنية :**

١- إسناد الكمالات المطلقة لله سبحانه ومعرفة ما يليق بالربوبية من الصفات والأســماء الحسنى ، وبذا تنفتح أبواب الكمال المطلق أمام الإنسان إذ من هذا الكمـــال الإلهي يتفجر كل كمال ، وإن الحادث يستحيل أن يصدر عنه الكمال صـــدورا ذاتيا : إذ لو كان الأمر كذلك لكان في استطاعة كل فرد أن يخص نفسه بجميع الكمالات .

وما دام الكمال صادرا عن الله عز وجل ، فإن الانقطاع عن الوحي السماوي إنمـــا هو انقطاع عن مصدر الكمال المطلق ، وهذا الانقطاع يؤدي إلى حبس النفس داخل الأبعاد التي يرسمها الإنسان ، وهي أبعاد مصطنعة تضيق وتتسع بقـــدر مـــا ينصبه الإنسان لنفسه من مثل يهتدي بهديها . ومهما بدأ مثل هذا الفـــرد رفـــيعا عاليا في المظهر ، فإنه في الحقيقة لا ينفك عن الدوران حول نفســـه داخـــل الحـــدود التي رسمها . والبعد عن الوحي السماوي يؤدي إلى الاحتجاب عن الكمال المطلق الذي يليق بالله عز وجل والجري وراء كمالات نســـبية طبقا لما تسوله النفس التي توجد كمالا ظنيا لا وجود له في الواقع ، ولا خلاص من هذا السجن الرهيب الذي يصنعه الفرد لنفسه إلا بالاهتداء بما جاء به خاتم النبيين ﷺ .

٢- **وحدة الإنسانية** : فصفات الإنسانية يتحتم أن تكون واحدة ولن تكون كذلك إلا إذا كان مبدعها وخالقها واحدا . أما إذا تعدد المصدر فمعنى ذلك أن الإنسانية تتعدد صفاتها طبقا لتعدد الأفراد ، وهذا التعدد وذلك التباين يا ليته يلغيها فقط بل إنه يصورها تصويرا مزورا ، فالإنسانية لا وجود لها بعيداً عن عقيدة التوحيد القرآنية .

٣- **وحدة شخصية الإنسان** : فصفات الإنسان وعواطفه ووجوده كلها تصدر عن مصدر واحد ، فلا يحب إلا الله ولا يبغض إلا في الله ولا يخشى إلا الله ، ولا ينفق إلا في سبيل الله : فتتفتح أبواب الكمال أمام الإنسان الذي لا يتجه إلا إلى الله سبحانه ، أما إذا تعدد المصدر فمعنى ذلك انقطاع الحياة الوجدانية للإنسان عن الكمال الحقيقي وخضوعها للمحسوسات التي يقوِّم الفرد الوجود على ضوئها ، و معنى هذا تكييف الوجود الإنساني طبقا لقيم حادثة مزورة لا أساس لها ، فهي تتعدد طبقا لنظر كل فرد ، وتتعارض إلى درجة أن بعضها يلغي البعض ، ويكون عدمها شرا من وجودها ، إذ تنقطع صلتها بالمصلحة العامة للإنسانية ، وتؤدي إلى اضطراب وتضارب المجتمعات فيما بينها وفساد العلاقات التي تربطها .

وعقيدة التوحيد تقتضي وحدة مصدر الإلزام : فالإنسان لا يراعي إلا الله ولا يخشى إلا الله ، أما إذا تعدد المصدر فإن الإنسان لا يراعي سوى وسائل الضبط الاجتماعي ، ومعنى هذا أن المجتمع يوجد الرقيب الذي يضبط سلوك الفرد ، وللفرد أن يأتي ما يشاء من الشر إذا ما أمن جانب هذا الزاجر .

٤- **ومـــن مســـتلزمات عقيدة التوحيد القرآنية حب الخلق في الله** وهذا هو الحـــب اللانهائـــي الصـــحيح . أما إذا تعدد مصادر هذا الحب فإن كل إنسان يخضـــع في حبه للغير للمقاييس التي ألفها واعتادها وهي تتسع وتضيق طبقا لإدراك الفرد وتكوينه النفسي ووسطه الاجتماعي ، وليس في طاقة الإنسان أن يحـــب للـــناس جمـــيعا الســـعادة الشاملة الكاملة إلا إذا آمن بعقيدة التوحيد ، فحينئذ يتفجر من حبه للخالق كل خير يستطيع أن يوصله للمخلوق وكل خير تسعه طاقته .

٥- **ومـــن مســـتلزماتها تكـــامل الأخلاق الفاضلة في الإنسان :** إذ يتصف بالحـــرية الحقـــة التي تصدر عنها العدالة والإحسان والعفو والرحمة إلخ ... وتولـــد في الإنسان الشجاعة الحقة المتجهة بجميع ضروبها وأشكالها الحسية والمعـــنوية نحـــو الصـــلاح الكامل ، وهذا المستوى الإنساني من مستويات الشـــجاعة لا يتدفق إلا من عقيدة التوحيد التي تحرر النفس من جميع مظاهر الاســـتعباد : المادي والروحي والاجتماعي ، فلا يعرف الإنسان سوى التفاني في مرضاة الله عز وجل .

٦- **ومن مستلزماتها الاقتداء برسول الله ﷺ والحرص على اتباعه** وهذا هو الطـــريق الوحـــيد والصراط المستقيم لمرضاة الخالق سبحانه وقد أرشدنا إلى ذلـــك سيد العلماء بالله تعالى لحرصه على هدايتنا فقال ﷺ " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به " .

فعقيدة التوحيد القرآنية هي السبيل العلمي الوحيد لتحقيق السعادة الأبدية وهي السبيل العلمي الوحيد للحيلولة دون نشر الفساد في الأرض ، وأن الإنسان إذا ما انحرف عنها غرق في بحر لجي من الأوهام والخيالات . ولا يزال يسبح فـــي ظلمات متراكمة ، تغزوه الشكوك من كل باب حتى تأتي سكرة الموت بالحق فيعلم ما كان عنه يحيد من عقيدة التوحيد القرآنية .

ولـــك أن تـــتأمل فـــي موقفه صلوات الله وسلامه عليه حينما حشد أهل مكة ودعاهم إلى عقيدة التوحيد ، ولتتصور هذا الموقف أضرب لك مثلا : هب أن إنسانا قد جمع كبار رجال الدول وخطب فهيم محبذا مذهبا سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا لا يؤمنون به ! هل يستطيع أن يفعل هذا ؟ وإذا ما فعل فما الذي يحـــدث ! إذا ؟ فمـــا بالك بمن جمع أشراف قومه وعامتهم ودعاهم إلى ترك عقـــيدتهم والإيمـــان بـــالله عز وجل وحده ، وأنت تعلم حالة الإنسان إذا ما هوجمـــت عقائده . هذا النوع من الشجاعة لا يكون إلا في رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فهم يصرفون كل شيء لله وحده ولا يبالون بغيره عز وجل .

## ٢- مالك يا أبا الحكـــم ؟!

كـــان أبـــو جهل لا ينفك عن مخزومياته : فلا يجتمع إلا ليتآمر ، ولا يتحدث حديثا يخلو من إيذاء المسلمين ، قد قتل الشر فيه عنصر كل خير ، وأجربت نفسه ، فلا يتلذذ إلا بحك موضع المرض منه ، ولا يرتاح إلا بإثارته وفي يوم من أيامه النحسات فكر وقدر ثم قتل كيف قدر ، إذ جاء يسعى إلى ناديه وقد ظن أنه قد حسم المرض الذي يأكل قلبه ، وهو لا يعلم أنه يزيد في وقدته كلما حركه ، فوقف على كبار قريش يقول ( يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا مـــا ترون من عيب ديننا وشتم آرائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا وإني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أ طيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت[1] به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني . فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . ) قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبدا فامض لما تريد .

فلمـــا أصبح أبو جهل أعد حجرا كما وصف وجلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وبكر الذين وافقوه بالأمس فجلسوا مجلسهم ينتظرون ما يفعله أبو جهل ، وكل قد أخذ أهبته لما سيحدث .

وغـــدا رســـول الله ﷺ ، فقام يصلي في الحرم وكان يجعل الكعبة بينه وبين المســـجد الأقصـــى . فلما سجد صلوات الله وسلامه عليه ، احتمل أبو جهل الحجـــر ثـــم أقـــبل ، حـــتى إذا دنـــا مـــن رسول الله ﷺ سقط منه الحجر ورجع منهزما مرعوبا منتقع اللون ، حتى وقف على أصحابه الذين دهشوا لما يحدث فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟

---

[1] شدخـــــت .

قـــال : قمـــت إلـــيه لأفعـــل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لـــي دونه فحل من الإبل لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته[1] ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بي أن يأكلني .

مـــن مناورة أبي جهل يتضح لنا أن الباطل لا يستند في حججه إلا على باطل مـــثله ، ويلـــتمس صاحبه جميع المبررات المزورة التي تروج في المجتمع ليحصـــل بذلك على تأييده ، وهذا هو ما نسميه باستغلال الشعارات المزيفة : لـــذا نراه قد وقف موقف المدافع عن الآلهة وعن شرف الأجداد ، وهو يطلب "رد الاعتبار" لما لحق بقومه من إهانة آلهتهم . ثم إن المبطل يحاول أ، يصل إلى غرضه بدهاء فنجد أن أبا جهل :

١- يحـــاول أن يتكـــئ على ما يثير النخوة في نفوس أصحابه حين اعتبر أن تقويض الآلهة إنما هو تسفيه لعقولهم وشتم لآبائهم .

٢- ويهرب من مواجهة الحق فلا يناقش ما دعا إليه الإسلام ويقارنه بما هم عليه من شرك ، ولو فعل هذا لظهر زوره وبهتانه وزهق باطله ، وهو يظن أنه بهروبه هذا سيستر الحق عن الأعين .

٣- ويختار العبارات التي تخفي الواقع : فلم يقل أنه صلوات الله وسلامه عليه يدعوهم إلى ترك عبادة الأوثان وترك الشرك بالله تعالى ويدعوهم إلى الإيمان بـــالله وحده عز وجل إذن لو قال هذا لسقط حقه في تدبير مؤامراته بل نجده يعمد رأسا إلى ذكر الطعن في الآلهة.

---

[1] أصل العنـــق .

فالمبطل لا يعمد إلى تقرير الباطل إلا بالحيلة والدهاء . ولذا يجب على الإنسان أن يستعمل عقله ، وعليه أن يبذل ما في وسعه وأن يدبر الأمور على جميع وجوهها ليعرف الحق ويتبعه أينما كان ، وهذا هو ما تدعو إليه نصوص القرآن العظيم والسنة المطهرة .

**شدة هيبته ﷺ :**

ولا تفوتنا نقطة هامة وهي أن أبا جهل قد تخير لتنفيذ الاغتيال وقت الصلاة ثم لحظة السجود بالذات . لماذا ؟

إن جميع كتب السيرة قد أجمعت على أنه صلوات الله وسلامه عليه لم ير أشد منه هيبة ، وهي ليست بهيبة الملوك و الحكام ، فهذه ليست بشيء بدليل أن أصحابه رضوان الله تعالى عنهم كانوا يلقون الملوك ولا يقيمون لهم وزنا من هذه الناحية ، بل بالعكس كان الملوك يهابونهم مع بساطتهم إذ سرت الهيبة إليهم منه ﷺ فما بالك بهيبته صلوات الله وسلامه عليه ، والتي تفرضها منزلته عند الله عز وجل :

كأنه وهو فرد من جلالته ... في عسكر حين تلقاه وفي حشم

وهذا يفسر لنا ظاهرة تكررت وهي أن كل من يحاول اغتياله صلوات الله وسلامه عليه نجده يرعد حين يواجهه ويسقط منه سلاحه أو يولي مذعورا — ولو تأملنا ما ثبت في صحيح السيرة لوجدنا أن هذا قد حدث للأفراد غير أبي جهل وكانوا من شياطين العرب وفتاكهم . ففي غزوة أنمار تفرقت الأعراب لما سمعت بمسير رسول الله ﷺ ، وانسل دعثور بن الحارث الغطفاني حين وجد رسول الله ﷺ مضطجعا ليستريح ووقف شاهرا سيفه فاستيقظ صلوات الله وسلامه عليه : فقال دعثور من يمنعك مني . فقال ﷺ : الله ، فسقط

السيف من يده فأخذه ﷺ ، وقال له : من يمنعك مني ؟ قال : لا أحد . وقد أسلم دعثور بعد ذلك . ومنهم شيبة بن عثمان بن طلحة في غزوة حنين ، وعامر بن الطفيل وصاحبه أربد بن قيس .

من هذا نعلم أن أبا جهل مع شراسته لم يكن في طاقته مواجهته ﷺ لشدة هيبته فاختار وقت الصلاة ثم السجود ليتم فعلته ، ومع ذلك فقد أصابه الرعب ما أصابه ، وكان كل من يريد به صلوات الله وسلامه عليه سوءا يتمثل له سوء عمله ويقف حائلا بينه وبين رسول الله ﷺ .

وعلى شدة كيد المشركين وبذلهم كل ما وسعهم في سبيل إيذائه صلوات الله وسلامه عليه كان من عادته ﷺ أن يأتي الحرم لأن البيت لا يخلو من الطائف من أي فج فتكون الدعوة إلى الإسلام هنا أشد ظهورا من أي مكان آخر ، ولنقدر الموقف على حقيقته من ناحية الشجاعة القصوى يجب أن تعرف أن دار الندوة وهي مجمع زعماء القرشيين كانت تطل على البيت قريبة منه .

## ٣- " حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه "

كان زعماء المقاومة من قريش يجتمعون في دار الندوة أو عند الحجر من البيت ولا هم لهم سوى تدبير المؤامرات لوقف انتشار الإسلام وللنيل من المسلمين ، وكان ﷺ يمر بهم و هم يأتمرون به فلا يبال بهم ، ويقف عليهم ويدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى .

وبينما هم في مجلس من مجالسهم عند الحجر إذ مر بهم صلوات الله وسلامه عليه يطوف بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فلما طاف الثانية غمزوه بمثلها والثالثة كذلك ، فلما فرغ ﷺ من الطواف وقف عليهم وأنذرهم بما أنزله الله

تعالى من الوعيد لكل مشاق لله ورسوله ، فوجموا ولم يستطيعوا ردا ، وكأنما على رأس كل منهم طائر ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه[1] بأحسن ما يجد من القول ، فيرفق في خطابه فيقول (انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا ) فانصرف رسول الله ﷺ عنهم .

وحينئذ ندموا على ما كان منهم وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون : وقال " ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم منه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه !" وكبر ذلك عليهم حتى تواعدوا على النيل من رسول الله ﷺ من الغد .

وجلسوا مجلسهم في اليوم التالي وكلهم قد تأبط شرا ، وإذا برسول الله ﷺ يطلع عليهم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد و أحاطوا به يقولون مهددين " أنت الذي تقول كذا وكذا " كما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم . فيقول رسول الله ﷺ : نعم أنا الذي أقول ذلك .

وإذا بهذه الثورة التي تجيش بها نفوسهم ، وإذا بالشر الذي تكاد تتفجر منه صدورهم قد انسل ولم يبق سوى الخوف ، ولم يجرؤ أحد منهم أن يعقل شيئا سوى واحد منهم وثب وأخذ بمجمع ردائه ﷺ فدفعه الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه وهو يقول " أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله " .

---

[1] ليرضيه .

# ٤ – لبيـــك ... لبيـــك

كان الصحب رضوان الله تعالى عليهم يقاتلون عدوا يبلغ أربعة أمثال عددهم ، وبـــنفس ســـلاحه ، بل إن العدو كثيراً ما يكون متفوقا فيما يخص الفرد من المقاتليـــن من عدة الحرب ، ومع ذلك يكون نصيبهم الظفر ، وإذا حدث أي خلل أثناء المعركة وجدناه راجعا إلى عدم الدقة في تنفيذ أمرٍ من أمور القتال أو خطته .

قال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما " ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ " . وعن أنس رضي الله تعلى عنه قال " كان النبي ﷺ أحســـن الـــناس وأشجع الناس وأجود الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عري لأبي طلحة وهو يقول : أيها الناس لن تراعوا ، ثـــم قال لأبي طلحة : إنا وجدنا فرسك هذا بحرا " ــ أي واسع الجري ــ فكـــان لا يسبق . وكانت النخبة الممتازة من رجال الحرب هم الذين يطيقون الاقتراب منه ﷺ إذا حمي القتال لشدة قربه من العدو . يقول فارس الفرسان علـــي بـــن أبي طالب رضي الله تعالى عنه " إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحـــدق ، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ﷺ ، وقد رأيتنـــي يـــوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا " .

وانهـــزم [1] المسلمون يوم حنين ، وبقي رسول الله ﷺ وحده تجاه العدو ولم يثبت من صفوة الشجعان إلا القليل ، وكان ﷺ ينادي : أين أيها الناس . هلموا إلـــي . و أمـــر عمه العباس رضي الله تعالى عنه وكان جهوري الصوت أن يـــنادي " يـــا معشـــر الأنصار ، يا معشر أصحاب الشجرة " يشير إلى بيعة الرضوان التي تمت تحت الشجرة قبيل صلح الحديبية . وما إن سمع الأنصار النداء حتى أجابوا " لبيك .. لبيك" .

فكـــان الرجل حين تتأخر عنه راحلته إذا أراد أن يثنيها ، أخذ عدته وسلاحه واقتحم عنها ليؤم الصوت حتى ينتهي إليه .

ولمـــا تكامل عدد العائدين مائة ، استحر القتال ، وأخذ المنهزمون يعودون ، ورســـول الله ﷺ يركض بغلته تجاه العدو ويقول : " أنا النبي لا كذب أنا بن عبدالمطلب " .

روى البخاري أن رجلا من قيس سأل البراء بن عازب " أفررتم عن رسول الله ﷺ يـــوم حنين . فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر . كانت هوازن رماة ، وأنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم فاستقبلنا بالسهام ، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان[2] لأخذ بزمامها وهو يقول: " أنـــا النبي لا كذب" ولم تتكامل عودة باقي الجيش حتى انتهى القتال بهزيمة العدو .

ولا نعلـــم قـــائدا من القواد في التاريخ قد ثبت في مثل هذا الموطن حتى رد جيشـــه وانتصـــر ، والـــذي يحدث أن القائد ينهزم مع جيشه ثم يلم شعثه إذا استطاع ويعيد الكرة ثانية .

---

[1] ولت بنو سليم أولا ثم تبعهم أهل مكة فباقي الجيش .

[2] هو أبو سفيان بن الحرث بن عبدالمطلب .

وبعد فإن الشجاعة مراتب .

فـــالذي يقاتل العدو شجاع ، وأشجع منه الذي يقاتل بدافع ذاتي ، وأشجع منه الذي يقاتل ولو بمفرده ، وأشجع منه الذي يقاتل ولا ينهزم ، وأشجع منه الذي يقـــاتل على هلاك خصمه ثم يبقى عليه حرصا على هدايته ، وهو أشد فرحا بهدايته من فرح هذا الخصم بها .

والذي يقول الحق ولو خالف الناس شجاع ، وأشجع منه الذي يعلن الحق بين الخاصـــة ، وأشـــجع منه من يعلنه على الناس جميعا ، وأشجع منه من يبذل مـــا فـــي وســـعه لهدايـــة معارضـــيه ، وأشـــجع منه من لم يكترث بإذاية معارضيه له.

وهكـــذا تـــتدرج مراتب الشجاعة إلى أن نصل إلى مرتبة معجزة لا يوصف صـــاحبها بالشـــجاعة كمـــا نعلمها ، بل إن الشجاعة لتسمو بنسبها إليه ، إذ أصـــبحت الشجاعة ذات مدلول خاص لا يصدر إلى عن هذا الإنسان الكامل فقط .

وإن شجاعة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم تختلف عما يألفه الناس بقدر اختلاف مرتبة الرسالة عن مراتب البشر العادية .

وإذا كان مصدر الشجاعة هو الثقة بالنفس ، فأعلى منها الشجاعة التي يكون مصـــدرها الثقة بالله تعالى ، وأشد الناس ثقة في الله تعالى أوسعهم معرفة به ســـبحانه ، وأوســـع الخلـــق معـــرفة بالله تعالى هو صاحب الرسالة الخاتمة للرسالات فهو ﷺ قد أوتي من الشجاعة على قدر عموم رسالته .

وإذا كانـــت دعوة الناس إلى الكمالات تحتاج إلى شجاعة تتناسب مع مستوى الدعوة ، والمستوى الذي عليه الناس ، فهو صلوات الله وسلامه عليه اجتمع لـــه مـــن الشجاعة بقدر ما اجتمع في شريعته من كمال لأن كل كمال يحتاج تقريره إلى شجاعة تناسبه .